

عقيدتي

للإيدوف الإسكتلندي المعاصر برنارد نيرسل

للأديب عبد الجليل السيد حسن

الفصل الثالث

السنن الخلقية

إن الحاجة الملحة للأخلاق نجت عن تمارض الرغبات ، سواء بين أناس مختلفين أو في شخص واحد أو في أوقات مختلفة أو حتى في وقت واحد ؛ فالرجل يرغب في احتساء الخمر ويرغب أيضا أن يتسلى عمله في الصباح التالي ، وتمدده فاسداً إذا اختلط لنفسه النطحة التي تمكنه أقل نمكين من إشباع رغبته ، ونحن نظن شرا بالمبتدئين والطائشين حتى ولو لم يصيبوا أحداً غير أنفسهم بأذى . ويرى « بنتام » (Bentham) : أن كل الأخلاق يستطاع ردها إلى « النفع الذاتي المستدير » (١) وأن كل من يعمل دائماً ناظراً على مدى الوقت إلى أقصى ما ينيله قدراً من الرضا الخاص ، فإنه يهيج النهج القويم دائماً . أما أنا فلا أستطيع أن أقبل هذا الرأي ؛ فالطغاة الذين وجدوا سرورا طائها من مشاهدة إزال العذاب ، لا أستطيع أن أني عليهم حينما أدى بهم الحذر والحكمة إلى أن يبقوا على أرواح ضحاياهم . رغبة منهم في تمذيبهم في يوم آخر . ومهما يكن من شئ فإن الحذر مما تتطلبه الحياة السميدة ؛ وهناك أشياء أخرى مماثلة لتلك ، حتى « روبنسون كروزو » كانت عنده الفرصة لأن يمارس التأبيرة ، وضبط النفس ، والتبصر ، التي يجب أن نمد من الصفات الأخلاقية ، لأن هذه الصفات زادت من مجموع رضاه دون إلحاق ضرر بالآخرين . وهذا الجزء من الأخلاق يلمب دورا هاما في تدريب الأطفال الذين لديهم ميل ضئيل إلى التفكير في المستقبل ، ولو كان ذلك قد تحقق في زمن سالف لتحول العالم إلى فردوس ، لأنه سيكون

من السهل منع الحروب التي هي من عمل الهوى لا العقل . ومع ذلك فإنه رغما عن أهمية الحذر فإنه ليس أم جزء في الأخلاق . ولا هو بالجزء الذي يثير مشاكل ذهنيه لأنه لا يتطلب اهتماما بشئ خارج النعمة الذاتية

والجزء من الأخلاق الذي لا يشمله الحذر والحكمة ، هو في جوهره مماثل للقانون أو لقواعد المجتمع ؛ إذ أن ذلك منهج لتمكين الناس من أن يعيشوا في مجتمع مع بعضهم بالرغم من احتمال تمارض رغباتهم ، لكن يحتمل هنا منهجان جدمتباينين : فهناك منهج قانون العقوبات الذي يهدف إلى تحقيق التوافق الخارجي فقط ، يربط الأفعال التي تعترض رغبات أناس آخرين في حالات معينة بنتائج غير مرغوب فيها . وها هو ذا منهج التقريع الاجتماعي : فإذا عد المرء مجتمعه الخاص شريرا فإن ذلك لون من ألوان العقاب ، ولذا يتجنب ما يحذره معظم الناس من أن يعرف عنهم أنهم مخالفون لدستور مجتمعهم . ولكن هناك منهج آخر أمتن أساسا وأشد إنقاها حينما يعمل به ، وهذا النهج هو أن تغير شخصيات الناس ورغباتهم بأن تضيق فرص التمارض والخلاف ، يجعل نجاح رغبات إنسان واحد تنفق مع رغبات الكثيرين بقدر الإمكان ، وهذا هو السبب في أن الحب خير من البغض ، لأن الحب يحل الانسجام محل الاختلاف بين الأشخاص المرتبط بهم ، وإن أثنين بينهما آصرة الحب يتجحان مما أوفشان معا ، ولكن حينما يكره أحدهما الآخر ، فإن نجاحه هو فشل الآخر

وإذا كنا مصيبيين في قولنا إن الحياة السميدة التي يلهمها الحب وتهدبها المعرفة ، فإن من الواضح أن الدستور الأخلاقي لدى أي مجتمع ليس قطبيا ولا مكفيا بذاته ، بل يجب أن يمتحن بقصد أن يرى : هل الذي أملاه مثلا الحكمة وحب الخير ؟ ولم تكن القوانين الخلقية دائما معصومة من الخطأ ، فإن الآزتك (Aztecs) يمدون من واجباتهم المشددة ، أن يأكلوا اللحم البشري ، وذلك لثلا يصبح ضوء الشمس ممنا . ولقد أخطأوا في علمهم ، ولعلمهم كانوا يذركون وجه الخطأ فيه ، لو كان عندهم شئ من الحب نمو الضحايا المضحي بها . وبمض القبايل يجسبون البنات في الظلام من سن المائثة إلى السابعة عشرة ، خوفا من

والآثم ليس من العدل خداعه ، ومن ثم فهو بعيد عن التسامح
الديني

ودعنا نتابع حياة الإنسان العادي فمن المهد إلى اللحد .
ونلاحظ النقاط الخرافية التي تسبب له آلاما . وأبدأ من الحمل
والولادة ، لأن تأثير الخرافة هنا جدير بالمنايا ، فإن الوالدين
إذا لم يكونوا متزوجين فالطفل وصمة لا يستحق إلا الأمانة .
وإذا كان أحد الوالدين مصابا بداء الزهري ، فمن المحتمل أن يرثه
الطفل . وإذا كانا قد رزقا أطفالا أكثر مما يحتمله دخل الأسرة
فستكون العاقبة ونقص التغذية وتضخم السكان ، بل ومن المحتمل
جدا الزنا بين الأقارب ؛ ومع ذلك فإن الغالبية العظمى من
الأخلاق متفهمة على أن الأحسن للوالدين ألا يعلموا كيف يتمن
هذا البؤس يمنع الحمل . ولكي يسر ويفتبط هؤلاء الأخلاقيون
فإن الملايين من الكائنات البشرية الذين لم يكن من الواجب
أن توجد ، تقاسى حياة كلها عذاب . وذلك لأنه قد فرض
أن الفعل الجنسي شر إذا لم يصحب بالرغبة في النسل . وليس شرا
حينما توجد هذه الرغبة ، حتى ولو كان من المؤكد أن هذا النسل
سيكون تميما . وقتل الإنسان فجأة ثم أكله - كما كان
مصير ضحايا قبائل « الأزتاك » - أقل درجة بكثير من الألم
المصادر عن مولد طفل في محيط تمس وملوث بداء الزهري . ومن
ثم فإن العذاب الأعظم هو الذي يسببه الأساقفة والسياسيون
عن عمد وسبق إصرار باسم الأخلاق ؛ فلو كان لديهم حتى أصغر
جذوة من الحب أو الشفقة نحو الأطفال ، ما ألصقوا بالقانون
الأخلاق هذه القسوة الشيطانية

إن الطفل المتوسط يقاسى حين الميلاد؛ وفي أيام طفولته المبكرة،
من الأسباب الاقتصادية أكثر مما يقاسيه من الأسباب الخرافية؛
فحينما يولد للنسوة الفتيات أطفال فإنهم يجدون خيرا أطباء ،
وخيرا عناية ، وخيرا طعام وشراب ، وخيرا راحة ، وخيرا لعب ؛
بينما النساء من الطبقة الكادحة لا يتمتن بهذه المزاي ، وقابلا
ما يموت أطفالهن لنقص تلك المزاي . وقد عملت السلطات العامة
بعض الشيء في سبيل المنايا بالأمهات ، ولكن وهي كارهة ؛ ففي
اللحظة التي تمنع فيها كميات اللبن المخصصة للأمهات لتغذية المعجز
في المصروفات ، تنفق السلطات العامة مبالغ ضخمة في رصف طرق

أن تجعلهم أشعة الشمس يحملون . ولكن ... من المؤكد أن
قوانيننا الأخلاقية الحديثة لا تحتوى على شيء مماثل لهذه الأعمال
الوحشية !! ومن المؤكد أيضا أننا لا نحرم من الأشياء إلا تلك
التي تضر حقيقة ، أو على الأقل تلك التي بلغت حد الفظاعة ، حتى أن
أى شخص مهذب لا يستطيع أن يدافع عنها !! . . . ولكني
لست متأكدًا مثل هذا التأكيدي . وإن الأخلاق الشائنة المزيج
محبوب من المنفعة والخرافة ، ولكن للجزء الخرافي القدر المثل ،
لأن الخرافة هي أصل السنن الخلقية ، فلقد كان في الأصل يظن
أن بعض الأفعال لا ترضى الآلهة ، وقد حرمت بالقانون لأن
اللجنة الإلهية كان من المتوقع ألا تحمل بالأفراد الآمن فقط ، بل
على المجتمع كله ، ومن ثم فقد ظهر تصور الخطيئة على أنها الشيء
الذي لا يرضى الإله . وليس هناك من سبب يمكن إبدائه عن
بعض الأفعال لماذا تكون غير مرضية ؟ كما أنه من الصعوبة مثلا
أن يقال : لماذا كان من غير المرضي أن يتحرق الطفل شوقا إلى
لبن أمه ؟ ولكن عرف بالوحى أن ذلك هو الواقع . وفي بعض
الأحيان كانت الأوامر الإلهية تفسر حبا في الاستطلاع ؛ فمثلا
أمرنا ألا نعمل أيام السبت ؛ وأصناف البروتستانت على ذلك معنى
الألعاب أيام الأحاد ؛ ولكن نفس السلطة السامية ، تمزى إلى
التحريم الجديد ، كما هو للقديم

ومن الجلي أن الإنسان ذا النظرة المليئة إلى الحياة ، لا يدع
نفسه تهرب نصوص الكتاب المقدس أو تعاليم الكنيسة ،
ولا يسره أن يقول إن هذا أو ذلك من الأفعال (ثم ، وبذلك ينهى
الأمر . بل سيتحرق إن كان ذلك بسبب ضررا ؟ وهل العكس
الاعتقاد بأنه يتم بسبب ضررا ؟ وسيجد - وخصوصا فيما
يتعلق بالأمور الجنسية - أن أخلاقنا الشائنة تحتوى على قسم
كبير أصله خرافي محض . وسيجد أن هذه الخرافة - مثل
خرافات « الأزتاك » - تحتم قسوة لا لزوم لها ، وأنها تزول
إذا تأثر الإنسان بالمشاعر الرقيقة تجاه جيرانهم . ولكن المدافعين
عن الأخلاق التقليدية ، هم وحدهم أصحاب القلوب المتحمسة ،
كما قد يبدو في حب الحرب الذي يبديه رؤساء الكنيسة . وعلى
ذلك ، فالإنسان مدفوع إلى أن يظن أنهم يعتبرون الأخلاق
كشيء قانوني يمكنهم من إشباع رغبتهم في تذيب الآخرين :

السكان الأغنياء ، حيث حركة المرور ضئيلة . ويجب أن يملوا أنهم يمثل هذا الفرار بنسبوت في موت عدد من أطفال الطبقة السكادحة ، بسبب جرعة الفقر . ومع ذلك ، فإن الطبقة الحاكمة ، يشد أزرها الأعلى الساحة من رؤساء الدين ، وعلى رأسهم البابا ، قد أرسدوا قوى الحرافة الضخمة في العالم لتدعيم الظلم الاجتماعي

• وتأثير الحرافة في كل مراحل التربية نسكية . فإن نسبة مشوية من الأطفال لديهم عادة التفكير . ومن أهداف التربية أن تخلصهم من هذه المادة . فالأسئلة المرحجة تقابل بالقول « ص . . ص » أو بالمقاب ، وتستخدم الماطفة الجماعية في تلقين أنواع معينة من الاعتقاد ، وعلى الأخص الأنواع الوطنية . والرأسماليون والحرييون ورجال الكهنوت ، يتعاونون في التربية ، لأهم جميعهم ، يمتدنون في قوتهم على سيادة مذهب المواطنين ، ونبرة الحكم النقدي . وبمساعدة الطبيعة البشرية نتجج التربية في زيادة هذه الميول ، لدى الإنسان المتوسط

رها هي ذى طريقة أخرى تحطم بها الحرافة التربية ، وهي تأثيرها في اختيار المدرسين ، فلا أسباب اقتصادية يبنى الأ تزوج المدلة ، ولأسباب أخلاقية يجب ألا يكون لها صلوات جنسية خارج نطاق الزوجية ، مع أن كل من درس علم النفس المختص بالسقم يعلم أن إطالة أمد المدرسة ، جد مضر على المرأة ، فلا يبنى الأ تشجع عليه المدرسات في المجتمع السليم . وهذه القيود المفروضة تؤدي إلى رفض جانب من النسوة القويات الجريئات أن يتعاطين مهنة التدريس . وهذا كله يرجع إلى التأثير المستمر لذهب الزهد الحرافي

والأمر أسوأ في مدارس الطبقة المتوسطة والدنيا ، فهناك الصلوات الكنسية والمنابة بالأخلاق موكولة إلى رجال الدين ؛ ورجال الدين غالباً ما يقومون في طريقتين كملين الأخلاق ، فهم ينكرون الأفعال التي لا تسبب ضرراً ، ويتجاوزون عن الأفعال التي تسبب ضرراً عظيماً . فهم جميعاً يسخطون على الصلوات الجنسية بين الشخصين غير المتزوجين اللذين يشق كلاهما الآخر ، ولكنهما بعد إيساً متأكدين أنهما يرغبان أن يمشيا مما طسوال حياتهما ، ومعظمهم يسخطون على تحديد النفس ؛

ولكن أحدا منهم لا يسخط على وحشية الزوج الذي يتسبب في وفاة زوجته من كثرة الحمل . وقد عرفت قيساً عصرياً كان لزوجته نسمة أطفال في تسمة أعوام ؛ وقد أخبره الأطباء أنها إذا أتت بالمائس فقد تموت . وفي العام الثاني حملت به فانت ، ومع ذلك فلم يسخط عليه أحد منهم ، واستمر في أبرشيته ، وتزوج مرة أخرى . وما دام رجال الدين مستمرين في تجاوزهم من القسوة وفي سخطهم على الاستمتاع البري ، فإنهم لا يقدرنون إلا على عمل الشر والضر كحراس الأخلاق الصغار

وها هو ذاتاً غير آخر سى للحرافة في التربية ، وهو عدم تعلم الحقائق الجنسية ، فإن الحقائق الفسيولوجية الأساسية يبنى أن تم في الجفنين بكل بساطة ، وبالطبع قبل سن البلوغ أى في هذا الوقت الذي لا يكونون فيه نشيطين . ففي سن البلوغ يبنى أن تعلم أصول الأخلاق الجنسية غير الحرافية . ويجب أن يلقن البنون والبنات أنه لا شئ يجر الاتصال الجنسي إذا لم يكن هناك ميل متبادل . وهذا على العكس من تعاليم الكنيسة التي تعتقد أنه ما دام الزوجان قد تزوجا ، وما دام الرجل يرغب في طفل آخر فإن العمل الجنسي له ما يبرره أياً ما كان عظم نفور الزوجة . ويبنى أن يعلم البنون والبنات احترام كل منهما لحرية الآخر ، وأن يمشروا أنه لا شئ هناك يمنع كائنا بشرياً - أياً كان - حقوقاً أكثر من الآخر ، وأن الثيرة وحب التملك والاستئثار تقتل الحب . ويبنى أن يملوا أيضاً طرق التحكم في النسل (٢) لكي يكونوا على بيعة من أن الأطفال يجب أن يأتوا حينما يرغب فيهم . وأخيراً يبنى أن يملوا أخطار داء الزهري وطرق الوقاية والملاج . وعلينا أن نتوقع من التربية الجنسية على هذه المناهج زيادة في السعادة البشرية لا تقاس

من الواجب أن يعرف أن الصلوات الجنسية - في حالة عدم وجود الأطفال - أمر خاص محض لا علاقة للدولة أو الجيران به . وفي الوقت الراهن يماقب قانون المقوبات على بعض صور مميعة من الاتصال الجنسي لا تؤدي إلى ذرية ، وهذا خرافة خالصة ، لأن الأمر لا تأثير له على أحد إلا على الفردين المتعلق بهما مباشرة ،

(٢) أى طرق ضبط النسل وتحديده (birth control)

« أشرار » ويستحقون « العقاب » ليست بشئ يستطيع أن تؤيده الأخلاق العقلية وليس من شك في أن بعض الناس يرتكبون أشياء يريد المجتمع منمها ، وهو على سواب في منمها ، ولناخذ جريمة القتل كأوضح مثال ، فمن الجلي أنه إذا أردنا مجتمعا متماسكا نتمتع ببهاجه رمزيه ، فلن نسمح للناس أن يقتل بعضهم بعضا وقتما يشعرون بميل إلى أن يفعلوا ذلك . ولكن هذه المشكلة يجب أن تعالج بروح علمية محضة ، فنسأل ببساطة : ما هي أنجع طريقة لمنع القتل ؟ ومن بين طريقتين متعادلتين التأثير في منع القتل نختار تلك التي تسبب ضررا أقل للقاتل ، فإن إبداء القاتل مما يؤسف له ، مثل الألم في العملية الجراحية ، فقد يكون ضروريا مثله ، ولكنه ليس موصوفا للتفككة والشموه بأخذ الحق الذي يسمى « الإهانة الخلقية » فليس إلا صورة من القسوة . وإيلا للمجرم لا يمكن تبريره أبدا بفكرة العقاب لأخذ الثأر ، وإذا كانت التربية الصالحة بالشفقة تساوئها في التأثير ، فإنها تفضل أكثر إذا كان تأثيرها أكثر . وبالطبع منع الجريمة وعقاب المجرم - سؤالان متباينان . وموضوع توقيع الألم للمجرم من المفروض أنه للارهاب فقط . ومع ذلك فإذا جعلت السجن إنسانية إلى درجة أن السجن يتسال فيها قسما عظيميا من التربية بدون مقابل ، فقد يرتكب الناس الجرائم لكي يؤهلوا لدخولها . وليس هناك من شك في أن السجن يجب أن يكون أقل متعة من الحرية . ولكن خير طريق لتجنب هذه النتيجة أن تجعل الحرية أكثر متعة مما هي في بعض الأوقات في الوقت الحاضر . ولكني لا أريد أن أطرق موضوع « الإصلاح الجنائي » ولكني أريد فقط أن أقول : إن من الواجب أن تعامل المجرم كما تعامل إنسانا مصابا بالطاعون ، فكل منهما خطر عام ، وكل منهما يجب أن يحمد من حربته ، حتى يتوقف عن كونه خطرا ، ولكن الرجل المصاب بالطاعون موضوع للعطف والواساة ، بينما المجرم موضوع للعنة . وهذا وضع غير عقلي ، وبسبب هذا الاختلاف في المعاملة فإن سجوننا أقل نجاحا في شفاء الميول الإجرامية من مستشفياتنا في علاج الأمراض

عبد الجليل السيد حسنة

الكلام بية

ومن الخطأ أن يقال - حين وجود الأطفال - إن من الضروري لمصلحتهم جعل الطلاق مستحيلا ، فالمريدة والسكر المتاد ، والقسوة والجنون ، أمور نتم ضرورة الطلاق لمصالح الأطفال تماما كما هو لمصالح الزوجة أو الزوج . والاهتمام الغريب - في الوقت الحاضر - الخاص بالزنا ليس عقليا تماما . فمن الواضح أن أنواعا عدة من سوء السلوك أشد خطرا على السعادة الزوجية من الحياة المحتلثة . وأشد خطرا من كل ذلك ، هو إصرار الذكر على إنجاب طفل كل عام ، هذا الإصرار الذي يبدو أنه من سوء السلوك أو القسوة المتعنين

يجب ألا تكون السنن الأخلاقية شيئا يجعل السعادة الفرزية مستحيلا ، ولكن ذلك أثر من التشدد في الاعتصار على زوجة واحدة ، في مجتمع عدد الجنسين فيه ليس متعادلا . فبالطبع نتم مثل هذه الظروف تنتهك السنن الخلقية ، ولكن حينما نكون السنن كذلك فإنها لا يمكن أن تطاع إلا بانقاص كبير في سعادة المجتمع . ولكن حينما يكون من الخير أنها كلها (أي هذه السنن) لا مراعاتها ، فمن المؤكد أنه قد حان وقت تغييرها . وإذا لم يفعل ذلك فسبواجه كثير من الناس الذين يسرون في طريق مضاد للمصلحة العامة ، تغييرا غير مرغوب فيه في النفاق أو الهم . والكثيرة لا تخجل بالنفاق الذي هو جزية متعلقة لسلطاتها . أما في أي مكان آخر فقد عرف النفاق على أنه شر يجب أن لا يحارب بهوادة

وأشد ضررا من خرافات اللاهوت خرافات القومية ، وواجب كل فرد نحو دولته الخاصة ، لأية دولة أخرى ، ولكني لا أعرض في هذه المناسبة إلى مناقشة هذا الأمر أكثر من أن أشير إلى أن اقتصار اهتمام كل فرد على أبناء وطنه أمر مضاد لبدا الحب الذي عرفناه ، كهيئة في بناء الحياة السعيدة . وهو كذلك ، ناد للشخصية المستنيرة ، لأن القومية الضيقة لا تخلف أبدا أمما منتصرة

وناحية أخرى مما يمانيه مجتمعنا من جراء التصور اللاهوتي للخطيئة ، وهي علاج المجرمين . فوجهة النظر القائلة بأن المجرمين